

التوسع الاستيطاني أولويات فرنسا في الجزائر ما بين (1830=1950م).

Settlement expansion - priorities of France in Algeria between (1830-1950).

بن الشيخ حكيم.

-جامعة يحي فارس؛ المدينة؛ (الجزائر).

-البريد الإلكتروني: bencheikh.hakim@univ-mèdèa.dz

تاريخ الإرسال: 2024/08/13؛ تاريخ القبول: 2024/12/09؛ تاريخ النشر: 2024/12/15.

الملخص:

لقد حمل المستعمر الفرنسي طابع الهجين من الأجناس فكانت تتجلى في خصاله عوامل التسلط والإبادة. ولست أدعي إن قلت بأن قوة هؤلاء تكمن في حجم ما تم إعداده من قوانين وإجراءات استثنائية مورست دون شفقة ولا رحمة ضد إنسان أخضع رغم صموده طوال سنوات لإرادة الأقوى القوة العسكرية والتفوق الصناعي.

فحينئذ رأى الفرد الجزائري بعينه يد الهجمة الإستعمارية تطال دينه وثقافته وشخصيته بل وكرامته، من خلال جرائم الإستعمار التي مارسها بتبنيه وسائل أكثر عنفا وأشد وقعا ووطأة.

الكلمات المفتاحية: الإستيطان؛ الجزائر؛ فرنسا؛ القوانين الإستثنائية؛ الصحة؛ المجتمع؛ الإستغلال؛ التبعية.

Abstract:

The French colonizer carried the character of a hybrid of races, and his qualities were reflected in the factors of

domination and extermination. I do not claim to say that the strength of these people lies in the magnitude of the exceptional laws and measures that have been prepared and practiced without pity or mercy against a human being, despite his steadfastness for years, to the will of the strongest, military power and industrial superiority.

Then the Algerian individual saw with his own eyes the hand of the colonial attack affecting his religion, culture, personality and even dignity, through the evidence of colonialism that he practiced by adopting more violent and heavy-handed means.

Keywords: settlement; Algeria; France; exceptional laws; health; society; exploitation; dependency.

مقدمة:

نباشر من خلال هذه الدراسة بحث وتحليل قضية الاستيطان الفرنسي في الجزائر، بالوقوف على طبيعة الظاهرة، ولعل الأخطر من ذلك كونها كانت انعكاسا متماثلا لظاهرة الاستعمار، بل وكانت انعكاسا للتطورات السياسية التي أفرزتها طبيعة المرحلة من خلال مسارات التنافس الاستعماري، بين كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا.

ويمكنني الحديث عن واقع السياسة الإستيطانية الفرنسية في الجزائر من خلال حركية الإستيطان بمطلع القرن 19م، وكذا الوقوف على طبيعة المستعمر نفسه الذي كان يحمل طابع الهجين من الأجناس حيث كانت تتجلى في خصاله عوامل التسلط والإبادة.

فحينئذ رأى الفرد الجزائري بعينه يد الهجمة تطال دينه وثقافته وشخصيته بل وكرامته، وكل ذلك يتضح من خلال جرائم الإستعمار التي مارسها بتبنيه وسائل أكثر عنفا وأشد وطأة، وباعتراف الحاكم

العام السيد جوناو عندما قال: "جئنا لنشعل الشموع في الجزائر فأطفأناها". ضربا للتعطيل الاجتماعي بل وتوقيفا لحركية التاريخ الذي انتهى عند حدود هذه السياسة.

إذا فمرجعية ذلك عائدة إلى اختلال التوازن بين المستعمر والمستعمر، بين وطن آمن كان يعيش واقعه وأيامه وبين الوجود العثماني، رغم ما آلت إليه الإيالة الجزائرية من تراجع ثقافي واجتماعي، في الوقت الذي كانت تعانيه الإدارة الفرنسية من ظروف عصبية داخلية وخارجية في ظل انتشار التسابق الاستدماري الذي كانت أوروبا تعيشه جراء النهضة التقنية مطلع القرن 19م.

كثيرا ما ترددت أمامنا مصطلحات الإستيطان والاستعمار والحماية بل وكل عبارات الإلحاق والضجع العنصري وقطع الأرزاق والأعناق ونبذ أهل البلاد، واستعبادهم والتككيل بهم، ولعل الأمثلة كثيرة وواسعة النطاق والتموضع.

ومنه تتبعت نشاط هذه العلائق وطبيعتها القومية والعنصرية الإستهتارية طيلة قرن ونيّف، لعلّ أجيب على بعض تلك الأسئلة على الأقل بالنسبة لتاريخ الجزائر طيلة ذلك الزمان أو بعضه؟

ويمكنني بشيء من الإيجاز أن أقف على طبيعة الأهداف التي أدرجتها في إشكالات فرعية وجزئية على النحو التالي:

ماهي المنطلقات المنهجية للسياسة الفرنسية لحملتها الاستيطانية في الجزائر؟ وما الوسائل المعتمدة في تنظيم ذلك؟

من هم المستوطنون الذين استفادوا من هذه السياسة؟ ومن أين قدموا؟ وما خلفيات أصولهم وتطورهم الديمغرافي، وكذا تمركزهم الجغرافي في الجزائر؟

ماهي تداعيات هذه السياسة الاستيطانية على المجتمع الجزائري؟

واعتمدت المنهج التاريخي التحليلي، حتى يتسنى لي تتبع تطوّر الظاهرة الاستيطانية الأوروبية في الجزائر، وتخلله المنهج المقارن حيث قارنت بين المجتمعين أي معاناة المجتمع الجزائري من النظام المفروض عليه وما يقابلها من استقرار وتمتع الجاليات الأوروبية بممتلكات الأهالي وما حصلت عليه في جميع الجوانب، معتمدا في ذلك على التحليل واستخلاص النتائج، وذلك باعتماد المنهج الإحصائي.

1 - واقع العلاقة بين الإسطيطان والإستعمار:

يظهر من خلال وقائع حروب الاحتلال أن الاستيطان على صلة وثيقة بالاستعمار، حيث يشكل المرحلة الموالية بعد الاحتلال، ويمثل حده الأقصى، ولا يتم إلا في بيئة ومناخ استعماري، يشرف عليه ويرعاه، كما يعد الاستيطان من أقدم أشكال الاستعمار، حيث صاحب عملية الاستعمار انتقلت نسب كبيرة من المستعمرين الأوروبيين، بسبب حركية الهجرة من البلد الأم نحو البلاد المحتلة للإقامة فيها وطمعا في استغلال ثرواتها (نبهان، ص: 23).

لقد ساد الاستيطان مع توسع الظاهرة الاستعمارية، في موجتها الثانية، خلال القرنين 19م و 20م وكان مرادفا لحملات التوسع، التي كانت تقوم بها الدول المهيمنة، لدوافع إيديولوجية، ودينية، واقتصادية لاسيما ببزوغ مرحلة الثورة الصناعية مطلع القرن 18م وما بعدها، ولعل الإستعمار أو كما جاء في مصطلحات أخرى بمعنى الإستعمار هو عبارة عن كتلة اجتماعية واحدة متكاملة، لغويا، ودينيا. وأصبح أمرا غير قابل للنقاش بسبب الحاجة الملحة للمطالب المجتمعية للأجيال

المتباينة عرقيا وثقافيا ولغويا والطامعة في استغلال خيرات الشعوب من منظور مساعدتها على التطور والتقدم وتأهيلها لتحمل أعباء المسؤولية الملقاة على عاتقها. بحجة نشر رسالة التمدن والتحضر التي جاء بها السيد الأوروبي (زوزو، 2009، ص: 21)، ولما كانت غريزة حب التملك والسيطرة موجودة في أعماق النفوس البشرية وطلبا لإرضائها سارعت الشعوب القوية في فرض هيمنتها على الشعوب الضعيفة، من أجل استغلال مواردها وسكانها خدمة لمصالحها، فكان شمال إفريقيا ميدانا ومجالا خصبا لذلك وبخاصة الجزائر، لاعتبارات كثيرة منها موقعها الجيو-استراتيجي، وتعد سنة 1830م بداية قوية للاستيطان الأوروبي، حيث كانت الهجرات الأوروبية متنوعة ومنها الدائمة والمؤقتة، فظهر المستوطنين "*Les colons*" وود ذكرهم بأسماء مختلفة منها الأقدام السوداء (*pieds-noirs*) وهي تسمية تطلق على المعمرين أو المستوطنين الأوروبيين الذين سكنوا أو ولدوا في المغرب العربي عموما والجزائر خصوصا إبان الاستعمار الفرنسي.

أما عن صفة الأقدام السوداء فترجع إلى سواد الأحذية التي كان يرتديها الجنود الفرنسيين، بالمقارنة مع أقدام الجزائريين الحافية، وهناك من يرجعها إلى كونهم كانوا يعصرون عناقيد العنب بأرجلهم فانسخت إلى الركاب، وكان أغلبهم ينحدر من أصول فرنسية إيطالية، مالطية، إسبانية وغيرهم (Mannoni, 1993, p. 115) جمعهم المصلحة الخاصة والأهداف الضيقة لعملية الاستغلال والإلحاق لقول: السيد "فرحات عباس" فقد كتب في مذكراته قائلا: «إن الفرنسيين والإيطاليين والإسبانيين واليهود الذين يكونون هذا المجتمع يتكاثرون ويتباغضون ولكن تجمعهم فكرة واحدة وهي العنصرية وكره

العربي، كما لهم مصالح مشتركة في نطاق النظام الاستعماري الذي يدافعون عنه دفاعا مستميتا، فتجمعهم إذا مقتضيات عديدة وحاجيات متضاربة ومتواطئة وينجم عن هذا التحالف الغريب أنه لا يوجد عندهم نزاع الطبقات، إن العنصرية المناوئة للعرب هي الرابطة القوية التي تجمع تلك الطبقات فتجعل منها بناء مرصوصا» (عباس، 1984، ص: 119)، إلى جانب السكان الأصليين وحرص الفرنسيون على الاستحواذ على أفضل الأراضي التي كانت للأهالي (عباس، 1984، ص: 119 - 120).

وأصبحت الجزائر بموجب قرار 1834 جزء من الممتلكات الفرنسية تحت إشراف وزارة الحربية الفرنسية، حيث لعبت التيارات الفكرية دور كبير في تشجيع الهجرة والاستيطان بالجزائر في مقدمتها التيار الكاثوليكية والسانسيمونية الذي كان رئيسها الأب "أنفانتان" حيث اعتبر الجزائر البوابة الواسعة للولوج إلى قلب العالم الإسلامي، وللدولة الحق في أن تنزع من الجزائريين ممتلكاتهم (الأشرف، 2007، ص: 267).

وقد كان وراء تنفيذ هذه السياسة العديد من المدارس، منها المدرسة الألمانية التي ظهرت أواخر القرن 18م، والتي اعتمدت على نظرية تزايد السكان بأوروبا عامة وألمانيا خاصة حيث يفترض إيجاد مساحات واسعة، ليستوطن بها المهاجرون الألمان.

وانطلق الأوروبيون في تعمير المناطق الخالية على اعتبار أن الأراضي غير الأوروبية تعد مناطق خالية من الحضارة، يجب استيطانها واستغلال خيراتها (عميراوي، 2004، ص: 72)، وكان من بين أهم أهداف الإستيطان الفرنسي اجتثاث السكان الأصليين من أراضيهم والاستيلاء عليهم، لتأمين النهب الإستعماري والتوسع فيه ليصبح

المستوطنون قوة دفاع لفرنسا (العسلي، 1980، ص: 164)، مما مهد في طمس معالم الهوية الوطنية، والغزو الثقافي واللغوي والتعاون على نشر الثقافة الفرنسية.

وعلىنا كباحثين أن نطرح تساؤلات كثيرة ومهمة مفادها هو إلى أي مدى يمكن للجزائر أن تقدم أرضا للهجرة لتغير وجهة نظر فرنسا المتروبولية حول ظاهرتي الهجرة والاندماج؟ حيث يظهر في هذه الأرض المستعمرة عنصري الفرنسية واللفيف الأجنبي جميعهم من غير السكان الأصليين، سعيا لتحقيق سياسات الهجرة والتخطيط لاندماج الوافد الجديد؟.

2 - ملامح السياسة الإستيطانية الفرنسية في الجزائر:

عملت الإدارة الاستعمارية على وضع نمطا لشعب فرنسي بالجزائر، من خلال بعث بل وتشجيع حركية الهجرة من فرنسا بل ومن أصقاع أوروبا (Boyer, 1963, p. 23) (باتجاه الجزائر، دافعة ومقنعة لكل جنسياتها على ضرورة العمل على استيطانها وتعميرها، ولتثبيت سياستها بالجزائر سعت إلى مصادرة الأراضي الخصبة بمقتضى كثير من القوانين والتي منها قانون سيناتوس كونسلت لسنة 1863م، وكذا قانون 1871م قانون وارني 1887م التي سهلت بموجبه عملية إقامة القرى الجديدة في شكل مستوطنات ساعدت على استغلال واستثمار الأرض بعد نزعها من ملاكها الحقيقيين، وأصبح هؤلاء خماسيين عند الكولون، وكل هذه القوانين وهذه الأساليب التي انتهجتها فرنسا كانت تهدف لمنح امتيازات لإقصاء الجزائريين من المشهد الجزائري بالكلية (Boyer, 1963, pp. 24-25). وفي ذلك خطب الجنرال كلوزال في 9 أوت 1835 بين جموع الأوربيين حينما صاروا بمدينة

الجزائر قائلاً: "يجب أن تعلموا أيضا أن هذه القوة العسكرية التي هي تحت إمرتي ما هي إلا وسيلة ثانوية، ذلك أنه لا يمكن أن نغرس العروق هنا إلا بواسطة الهجرة الأوربية فقط".

وقد كان للجيش الفرنسي خلال العقدين الأولين للاحتلال دورا كبيرا في ذلك، لاسيما في عهد الماريشال برتراند كلوزيل، والماريشال توماس روبير بيجو. ولذا فإن هذه الدراسة تهدف إلى إبراز استراتيجية الجيش الفرنسي في دعم هجرة المستوطنين الأوروبيين نحو الجزائر. ولعل الهزيمة التي منيت بها فرنسا في أثناء بداية تشكل اللحمة الألمانية الجرمانية على يد المحنك أوتو فون بسمارك عام 1870م قد شكلت المجال الحيوي الفاعل لعملية التدفق البشري الأوروبي على الجزائر، لاسيما جماعات كبيرة من الألزاس واللورين ففي الدفعة الأولى استوطن منهم حوالي 5000 شخص في الجزائر (بوضرساية، 2007، ص: 227). ثم ارتفع عددهم من 246000 إلى 376000 مستوطن خلال الفترة الممتدة من 1871=1881م، أغلبهم من العمال والتجار والصناع ومن الحرفيين والمزارعين ونظرا للصعوبات التي واجهوها في عدم تأقلمهم مع البيئة، وتعرض محاصيلهم للتلف من جراء عوامل المناخ، وقلة الأمطار، والرياح وانتشار الجراد، فقد مكنت لهم الحكومة ومنحتهم مساحات من الأراضي وعبدت لهم الطرق والسكك الحديدية، وبهذا اتجهت حكومة باريس لتطويع حركة الاستيطان الأوروبي أكثر فخلال الفترة من 1871=1900م تم إنشاء أكثر من 364 مركز منها 110 في متيجة ووادي الشلف وشمال التيطري (عميراوي، 2007، صفحة 96).

وما يمكننا أن نستنتجه أنّ الهجرة والاستيطان بالجزائر تضاعف خاصة بعد اعتماد السياسة العقارية التي كان لها دور في

تفصيله، لأنّ كل القوانين الصادرة قد دعمت هذه العناصر للبقاء في الجزائر، للأهمية التي تشكلها بالنسبة لفرنسا حيث قامت بكل التجاوزات لتضمن نجاح سياستها الاستيطانية الاستغلالية بالجزائر.

السنوات	مقاطعة الجزائر	مقاطعة وهران	مقاطعة قسنطينة
1837	9825	9304	3015
1838	12008	6499	3317
1839	14434	5219	3470
1844	53140	11427	10833
1845	66945	16540	11827
1846	75075	22586	11507
1849	57610	35246	19551
1853	62440	41464	20288
1854	71288	45016	31062
1855		51393	32926

ويمثل الجدول أعلاه توزيع المستوطنين على المقاطعات الجزائرية الثلاث، كما يبرز بشكل لافت انتشار المستوطنين وتمركزهم أساسا في عمالة الجزائر لما تمثله من ثقل استراتيجي كون العاصمة تقع ضمن نطاقه، ولما لهذه المنطقة الغنية بثرواتها الفلاحية (حيث تتوسطها منطقة المتيجة) (مياسي، 2013، ص: 126).

فكان من الطبيعي إذن أن ينتج عن هذا المشروع الاستيطاني العديد من الانعكاسات السلبية، المؤثرة على الجزائريين، ونتيجة هذه الظروف تعرض سكان هذه المنطقة لويلات الاستغلال والتكيد الأوروبي، أين مارس الوافد الأجنبي المحتل مختلف أساليب الإبادة والاستغلال عبر العديد من الطرق تمثلت في مجموعة من القوانين

الجائرة التي تكرس للنفوذ الأجنبي وتمهد للقضاء على صاحب الأرض.

والأدهى والأمر هو ذلك التآطير المنهجي والتتظير الفكري من جانب كثير من الفلاسفة الفرنسيين وفي طليعتها الفكر السانسيموني وكذا نظرية الفيلسوف دو طوكفيل (بالمر، 1992، ص: 332) الذي يذهب إلى حد القول: "إذا تركنا العرب لأنفسهم وتركناهم يتشكلون في قوة منتظمة، فلا مستقبل إطلاقا لمبادرتنا في إفريقيا". وأردف قائلاً: "...السيطرة الكاملة والاستيطان الجزئي هو النتيجة التي أعتقد بها إلى أن تظهر استحالة بلوغها" (دو طوكفيل، 2008، ص: 38).

3 - جدلية العلاقة بين الإستيطان الفرنسي وتدني المنظومة الصحية والإجتماعية للجزائريين:

لعل هذا الموضوع يكتسي أهمية بالغة، باعتباره يركز على آليات السياسة الفرنسية، وعليه فإنّ الغاية تكمن في أنّه يوضّح طريقة ونمط الاستيطان ودور المستوطنين الأوروبيين، من خلال الوقوف بالدراسة والتمحيص حول على طبيعة وواقع التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية، التي عرفتتها الجزائر منذ عام 1830م، ومدى تأثيرها على أوضاع المجتمع الجزائري، حيث تأتي في مقدمتها الأوضاع الصحية القاهرة التي مورست على أغلب الشعب الجزائري ففرنسا لم تغزونا فقط بالسلاح بل غزتنا كذلك عن طريق الصحة والتعليم، لأن الطبيب والمعلم في نظر الفرنسيين رسولا حضارة ثم وبطلا التقدم، ومحسنان للإنسانية، ولأن الصحة والتعليم هما أدتا السلطة في الحكم.

فالحالة الفزيولوجية والباطولوجية (لاجموير، 1989، ص: 36 -

(42) للجزائريين في غالبيتهم كانت سيئة منذ بداية الاحتلال، وكل

تقارير الأطباء الذين قاموا بزيارات عبر المناطق الجزائرية تصف الحالة الذميمة للأطفال والشيوخ والرجال، وتصف الأمراض الخطيرة فيهم كمرض السل وأمراض العيون (Correspondance du président du Conseil, 1831, 10H-61) حيث ارتفعت نسبة الوفيات بشكل خطير، لاسيما ما بين (1945م إلى 1946م)، إضافة لذلك تفشي البؤس والفاقة وضيق الأكواخ، ناهيك على أن معدل الجزائري من الكالوريات (وحدة حرارية غذائية) كانت لا تتجاوز 1500 كالوري يوميا في حين كان الأوروبي يحرق 3000 كالوري يوميا.

وصفوة القول هو أن إدارة الاستعمار وحتى تبقي على صحة المستوطن في أفضل حال فقد عمدت منذ بداية الاحتلال على توطيد دعائم المنظومة الصحية في الجزائر، وكان الحظ الأوفر من نصيب المعمّر بكامل جنسياته ولم ينل المسلم الجزائري من ذلك إلا النزر اليسير من اهتمام هذه الإدارة، كما نلمس من خلالها صورة واقعية عن طبيعة التناقضات والصراعات الناشئة، بين المجتمع الجزائري وبين المستوطنين، خاصة أنّ الموضوع يحمل مجالين رئيسيين جانب سياسي وجانب حضاري.

وعلى الرغم من ارتفاع معدل السكان بين المسلمين الجزائريين إلى ما يربو 10 م. ن، غير أننا نجد معدل ما يجدونه من الرعاية الطبية ضئيلا جدا، حيث لم يوجد في الجزائر برمتها سوى 1851 طبيبا، و660 مولدة و661 صيدلي، و462 طبيب أسنان و149 مستشفى منها 12 عسكري و28 مستوصف، أما في مدينة الجزائر فقد كان بها حوالي 78 طبيب لكل 100 ألف شخص.

السنة	إحصاء سكان بلديات الجزائر			سكان إضافيين	مجموع السكان
	فرنسيون	أجانب	المجموع		
1954م					
تعداد السكان المسلمين	8.364.652	84.680	8.449.332	37.985	8.487.317
تعداد السكان غير المسلمين	934.052	49.979	984.031	58.378	1.042.409
تعداد السكان مختطين	9.298.704	134.659	9.433.363	96.363	9.529.726
1948م					
تعداد السكان المسلمين	7.611.777	67.301	7.679.078	28.978	7.708.056
تعداد السكان غير المسلمين	876.686	45.586	922.272	51.457	973.729
تعداد السكان مختطين	8.488.463	112.887	8.601.350	80.435	8.681.785
التحولات والتغيرات التي طرأت بين الفترتين 54-48 في تعداد السكان	مسلمون	752.875+	17.379+	9.007+	779.261+
	غير مسلمين	57.366+	4.393+	6.921+	68.680+
	مجموعون	810.241+	21.772+	15.928+	847.941+

يمثل الجدول أعلاه نمو وتزايد إحصاء سكان بلديات الجزائر ما بين 1948م إلى 1954م وكذا في تعداد الكولون في الجزائر خلال هذه الفترة رغم أن نسبهم كانت أغلبها من جنسيات مختلفة على حساب الفرنسيين، وللإشارة فإن البقية المتبقية ممن عمروا الجزائر كانوا كذلك من السود، الذين سخرروا لأعمال الصخرة والحروب (Caom, Résultats statistiques du Dénombrement de la Population, 1954). ولعل هذه التوطئة تقودنا دون شك إلى الإمام بحصيلة الواقع الصحي المعتمد في الجزائر من خلال ما تقدمه من أسئلة حول الموضوع والتي أهمها ما يأتي:

- رصد الأوبئة والأمراض التي شهدتها الجزائر خلال الفترة المدروسة، وكيفية تعامل السلطات الحاكمة لمواجهتها.
- تتبع نوعية المراكز الإستشفائية وطبيعة المستوصفات.
- معرفة الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة عن الأوبئة والأمراض.

- التعرف على ردود أفعال السكان اتجاه الأمراض التي كانت تفتك بهم بين الفينة والأخرى.

وفي غياب سياسة تعايش وانسجام جعلت المجتمعين الأوروبي والإسلامي في مواجهة بعضهما البعض يتقاطعان ولا يلتقيان ، فمنذ أول لقاء للمجتمع الجزائري مع جيش المحتل الفرنسي غداة سقوط العاصمة حدثت القطيعة نهائياً، وزالت الصورة المثالية النمطية التي كانت للفرنسي في أذهان الجزائريين بعد عمليات الإبادة والتخريب التي لحقت مدنها وطالت ذاكراتهم ودينهم .

لقد تميز المجتمع الاستعماري بالعنف والعنجهية وسخر كل أدوات القوة لإخضاع المسلمين الجزائريين لخدمته، وترسيخ مبدأ اللامساواة بين الفئتين (سماتي، 2007، ص: 141) والعمل على إزعاج المسلمين باستمرار بهدف منعه من العمل أو كسب المال بل والعيش الكريم ، فكان من المنطقي إذا أن تنشأ حركات مناهضة وثورات رافضة لهذه السياسة الاستدمارية، التي طالت المجتمع الجزائري على امتداد القرنين 19م و 20م.

وقد كتب محمد الشريف ساحلي قائلاً: «من الغريب أن أول ممن اهتم بأرض الجزائر ليسوا معمرين لكنهم التجار المضاربون، والمدمنون على التهريب» (sahli, 1986, p. 53). وكانت قوانين الإدارة الفرنسية الاستثنائية في واقع الأمر سياسة جديدة اتجاه المسلم الجزائري، وبخاصة منها قانون الأهالي (*l'indigénat*) الذي حطم القواعد والمبادئ الأساسية لمنظومة العلاقات بين المجتمعين الجزائري وكذا الكولونيالي، كما لم يترك أي أمل لأي تقارب أو تعاون لأن الجزائري أصبح بمقتضى هذا القانون ثانوي لا يحق له التمتع بحق

المواطنة أو الجنسية وفق مخرجات القوانين الفرنسية (سماتي، 2007، ص: 141).

إن المرحلة التي مرت بها العلاقات بين قطبي المجتمع في الجزائر (الكولون والمسلمين) وإلى فترة الاستقلال، قد أثبتت استحالة الانصهار في بنية اجتماعية واحدة، لأن التعايش في ظل سياسة اللاعدل والسيطرة وتباين المعطيات الحضارية والفكرية والاجتماعية، قد جعل من فكرة التقارب في الأهداف والتعاون أمرا مستبعدا وعاملا أساسيا في تأجيج الخلافات الداخلية، وتوسيع الهوة بين النظام ورعاياه بين قوى الاحتلال وقوى الإنعتاق وفي مقارنة لهذه الجدلية الاجتماعية يمكن أن نستشهد بمقولة المفكر جيرار مونتفروي حينما تحدث عن الثنائية القطبية بعد نهاية الحرب العالمية 1945م قوله: «أرى اليوم على الأرض شعبين عظيمين انطلقا من نقطتين مختلفتين والظاهر أنهما سيلتقيان عند هدف مشترك» (Montifroy, 1990, p. 82) بينما يرى المفكر والفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر: «أن برز المسلم بدوره كرجل متساو، تساوي الند للند مع العمر، ترى حينذاك هذا المستعمر يشعر بضعف يصيب شخصه، وبنقص ينتاب كرامته وبانخفاض يعتري قيمته فإنه لا يخشى ارتقاء البونيول (لفظ احتقار وازدراء أطلقه المعمرون على أفراد الشعب الجزائري المسلم إنقاصا من قيمته وضربا لمبادئه، ومثل ذلك من المصطلحات نذكر: الأنديجان، البيكو، الراطون) (سارتر، 2007، ص: 116) إلى العالم البشري والتوابع الاقتصادية الناجمة عن هذا الارتقاء فحسب بل يكره ذلك الارتقاء لأنه ينذر به انهياره الشخصي فيؤدي به جنونه إلى أن يحلم في إبادة ذلك الشعب».

والمقصود من ذلك أن طبيعة العلاقة بين الفئتين أو بين ثنائية السيد والعبد هي اللغة التي يفهمها الاستعمار ومؤرخوه، كانت فيها من العنصرية والازدراء ومن الإفك ما تسمم عالما من البشر بأكمله، هذا إن كان يؤمن الكولون بل ويعتقد المستعمر أنه يوجد على الأرض بشرا غيرهم، لأن معاملاتهم للمسلمين الجزائريين كانت أقرب إلى الحيوانية منه إلى بني الإنسان، وقد لخص المؤرخ قوتي حول واقع الاستعمار الفرنسي في الجزائر حين قال: «حاولنا في الجزائر أن نجعل من أرض شرقية أرضا غربية».

لقد تصدى المجتمع الجزائري لكل القوارض الإستيطانية حين تعلق الأمر بأفكاره وإيديولوجياته وتقاليده وهو بذلك يكون قد صان وحدته الثقافية من الإنحرافية والزوال، ومن البديهي أن الاستعمار حاول بطرق مختلفة حتى ينشئ في مجتمعنا أعظم قدر من الفراغ الاجتماعي والديني والقانوني (Caom, (s.d.)) التي أملت إرادة المستعمر، وهي في حقيقة الأمر إجراءات ردعية حتى يعطل آلية التطور الفكري الاجتماعي للمسلمين الجزائريين، ورغم تأثيره في فئات كثيرة في المجتمع الجزائري وجعلها تتساق خلفه وأعني بذلك جماعة الاندماجين وأتباعهم، الذين اعتقدوا في أفكار المستعمر غير أنه لم ينجح في آخر المطاف من القضاء على مناعة الشبكة الاجتماعية للمسلمين الجزائريين، بل وقد جعلها أقوى وأشد من ذي قبل .

ولنا أن نتصور واقع وحجم الاستيطان وحجم ما خصص له من الأموال لقول المارشال الكلوزيل: "افتتح عهد الاحتلال الشامل مخاطبا المعمرين بمناسبة تعيينه واليا عاما في 10 أوت 1835 قائلا: "لكم أن تؤسسوا من المزارع ما تشاءون، ولكم أن تستولوا عليها في المناطق التي

نحتلها وكونوا على يقين بأننا سنحميكم بكل ما نملك من قوة وبالصبر والمثابرة سوف يعيش هنا شعب جديد، وسوف يكبر ويزيد بأسرع مما كبر وزاد الشعب الذي عبر المحيط الأطلسي واستقر في أمريكا من بضعة قرون".

وكذلك من الخطأ الاعتقاد بأن الاستعمار كان يفضل دائما لون البشرة الأسود كي يستعمره ويستغله بحجة حق الأبيض على الأسود، ولكن هل كان هذا الطرح صائبا حينما يتعلق الأمر باحتلال الجزائر؟ يمكنني أن نقول إن فرنسا مارست سياسة عنصرية ضد مجتمعنا من جنس أبيض وحطمت بذلك كل الأقنعة التي حاولت تظليل الرأي العام العالمي، لأجل الاعتقاد في فكرة أن الاستعمار جاء ليخضع فقط السود (سارتر، 2007، ص: 117).

فقد استهدف الاستعمار الفرنسي تحطيم الكيان الاجتماعي الجزائري وتمزيق نسيج العلاقات الاجتماعية به، ولم يكن بوسع الأوروبيين (الكولون) على اختلاف مللهم ونحلهم أن يتفهموا معنى أن يكون للمسلم الجزائري حقوقا في وطنه، بل نظروا إليه نظرة استعلاء وتكبر كما هو في المفهوم الإقطاعي حين يكون للسيد غير الذي للعبد، من هذا المنظور رأى السيد الأوروبي صاحب الحضارة والمدنية الراقية، أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يرتقي الجزائري المسلم إلى مستواهم الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي، رغم ادعاءات الإدارة الاستعمارية أنها بذلت الكثير من أجل رفاهية الجزائريين، إذا فطبيعة العلاقة التي كانت بين ثنائية المجتمع الجزائري لم تكن سوى نموذج لعلاقات براغماتية (جيمس، 2014، ص: 49-55)، أي أن أحادية الفكر النفعي هي أساس التطور فلا مجال للحديث أن مصالح

مشتركة بين الطرفين سواء كانت اجتماعية أو غيرها، ولا غلو إن قلنا إنها لم ترق حتى للجانب الإنساني.

وقد جاء في مؤلف الجنرال الفرنسي كاترو (Mourre, (Catroux (1978, p. 813 والموسوم بـ: "معركة البحر الأبيض المتوسط" ليعزز هذا التوجه حين ذكر بأن المعمرين كانوا يحتكمون إلى غرائزهم أكثر مما كانوا يحتكمون إلى عقولهم، ولم ينادوا إلى العمل المشترك والمصلحة العامة إلا حين ارتبط ذلك بمصائرتهم الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر. وقد سن الفرنسيون قوانين استثنائية حددت واقع هذه العلاقات، فقد حكموا عليها أول الأمر على أن تكون فاشلة، زجرية، عنصرية، أحادية واستعلائية يحق فيها للسيد وليس العبد، فهي بحق دولة داخل دولة كما هو الشأن اليوم بالنسبة للفاثيكان في إيطاليا، وقد تحدث كذلك السيد عمار بوحوش عن هذه السياسة لقوله: « تماشيا مع هذه السياسة التي كانت تشبه إلى حد ما سياسة المستوطنين البريطانيين في الولايات المتحدة الأمريكية، الذين انفصلوا عن بريطانيا وحاربوها وانتصروا عليها يوم أرادت أن تفرض عليهم قوانينها، فإن المعمرين الأوروبيين وهم خليط من عدة أجناس قد وطدوا علاقاتهم الاقتصادية والسياسية مع الشخصيات المرموقة في فرنسا، وانتقلوا إلى عزل الشخصيات الجزائرية عن فرنسا» (غليسبي، 1961، ص: 23، 24).

فلم يعد الحديث إذا عن مبادئ حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية مطروحا في ظل ازدواجية المعايير الأخلاقية والاجتماعية، حتى مع النخبة الجزائرية التي كانت قاب قوسين أو أدنى من توجهاتها وأفكارها، ومثال ذلك الأمير خالد صاحب حزب المساواة في الجزائر

ورائد الإصلاح السياسي ما بين 1913م إلى 1925م حيث حاربه الإدارة الاستعمارية بكل ما أوتيت من قوة وسلطة لا شيء إلا لكونه عارض أطروحة المستعمر (بوحوش، 1978، ص: 225). وكذلك الحال مع مشاريع المعمرين في الجزائر قبل وخلال الفترة المدروسة، لأن الحكام العامين الذين قدموا إلى الجزائر عسكريون كانوا أم مدنيون لم يفكروا البتة في تحسين ظروف المسلمين الجزائريين لكنهم عززوا مواقف الأقلية الكولونيالية ومصالحها باستثناء القلة منهم أمثال الحاكم العام إيف شانتينيو وجونار.. إلخ .

ولا جرم في أن طبيعة العلاقات الاجتماعية بين ثنائية المجتمع الجزائري كانت تخضع بدورها لطبيعة العلاقات الاقتصادية والسياسية، لأن المعمر حرص منذ البداية على امتلاك الأرض ووسائل الإنتاج وجعلها في قبضته وأبعد الجزائريين عن مصادر الرزق. وفي هذا المعنى أيضا يذكر الكاتب كارل فيبرسون (Vbreason Karl) (بن الشيخ، 2013، ص: 205) «أن التاريخ يطلعني على طريقة واحدة لا يوجد غيرها، أدت إلى قيام حالة حضارية هي الصراع بين الأجناس، والبقاء للعنصر أو الجنس الأصلح في الجسم والعقل.. إن طريق التقدم تغطيه أشلاء الأمم التي تبديد. إن الشعوب التي بادت، هي في حقيقتها الواضحة للعيان الدرج الذي رقاها الجنس البشري صاعدا نحو الحياة الفكرية الراقية والحياة الوطنية الراسخة التي نحيهاها اليوم». وكأن البشرية في عرف هؤلاء الكتاب لن تتقدم إلا على أشلاء الشعوب الضعيفة التي كانت ضحية الاستعمار والمستعمرين، ويذكر السيد غليسيبي أن التكوين النفسي للمستوطن معقد إلى درجة أنه وصف

بالعنصري الفردي، المقاتل إلى النهاية(السروجي، 1966، ص ص: 115 - 117).

خاتمة:

نجد أنّ نشاط الجاليات الأوروبية في المجال الاجتماعي والاقتصادي كان يعبر عن سيطرتهم على ثروات الجزائر، حيث كرسّت هذه الفئة مبدأ القوة المسيطرة على الشعب الجزائري، وقد كان لها دور كبير من خلال نشاطها لتحقيق الأهداف المرجوة التي جاءت بها فرنسا، وهي سلب حقوق الشعب الجزائري، واستغلال أمثل للثروات المادية والبشرية، والتي طبقتها الجاليات الأوروبية بأشع أنواع الاستغلال العنصري.

إن النتيجة التي نخلص إليها في نهاية هذه المرتكزات النظرية تتمثل في أنّ بنى المجتمع الجزائري السكانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كانت قائمة قبل الاستعمار الفرنسي ظلت منسجمة ومتكاملة إلى حدّ كبير، حتى جاء الاعتداء البربري فأدى إلى انقلاب شامل لجميع بناها وآلياتها وفق نظرية الإبادة العرقية.

إنّ النشاط الممارس من طرف هاته الجاليات الأوروبية في الجزائر في الجانب السياسي والحضاري، كانت آثاره واضحة على الجانب الاجتماعي، من خلال حرمان الجزائريين من حقوقهم السياسية، والدينية والعلمية بل والحياتية وكذا الاقتصادية، الأمر الذي أدى إلى تدهور حياة المجتمع برمتها. وهو ما نؤكد من خلال دراستنا لموضوع الجاليات الأوروبية في الجزائر المستعمرة ودورها السياسي والحضاري خلال الفترة الممتدة ما بين 1830 - 1930م لإبراز أهم ما ميّز نشاط ودور الجالية الأوروبية، تبين لنا أنّ تواجد الجالية

الأوروبية بالجزائر كان تكريس للسياسة الاستيطانية بكل حذاويرها، رغم التغييرات التي أدخلتها هاته الجالية سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا، واجتماعيا، وحتى عمرانيا خدمت مصالحها ومصالح السلطات الفرنسية فقط، أما الشعب الجزائري فقد عانى من الحرمان والاضطهاد.

ومما لاشك فيه أن نرى نسب وتعداد المستوطنين قد أخذ يتضاعف على حساب المسلمين الجزائريين وكان لذلك أثارا سلبية فيما بعد، وقد كان لهجرة هؤلاء النازحين الغريباء عدة نتائج منها

- 1 -نشأة طبقة من الإقطاعيين الأوروبيين.
- 2 -قلب التوازن الاجتماعي بين المسلمين والمستوطنين.
- 3 -خلق العنصرية البيضاء.
- 4 -خلق اقتصاد جزائري يخدم الاقتصاد الفرنسي الاستعماري.
- 5 -تعطيل عجلة التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في الجزائر.

أرد الاستعمار الفرنسي أن يجعل من المجتمع الجزائري مجتمعا عليلا في تراثه وحضارته ودينه ولغته وسلوكيات أفراداه ومنهج مفكره و ممثليه من الأحزاب الذين يدفعون عنه الظلم ويأخذون بيده إلى الخلاص والاستقلال.

قد اختلف مع السيد مالك بن نبي في دراسته للظاهرة الاستعمارية، حيث قال إنه حينما ينزل جيش أجنبي على أرض شعب ما، فإن هذا الشعب يكون معرضا إما إلى احتلال مؤقت أو إلى عملية ضم نهائية تحت سلطة شعب آخر، فأما الاحتلال المؤقت فإن تأثيراته في الحياة تكتسي صفة عابرة في حدود ما يستلزمه هذا الإنزال،

وينتهي نفوذه مع تصفية الوضع الحربي، أما عملية الضم فإن الأمور تتخذ مسلكا آخر يؤثر في حياة الشعب الذي جرت عليه هذه العملية مما يقود في النهاية إلى ميلاد مجتمع جديد...تندمج فيه خصائص الشعبين (الغالب و المغلوب)، لأن الاستعمار الفرنسي وإن غير حقيقة في شكل العمران وحاول أن يصبغ المدينة بطابع أوروبي غير أنه لم يؤثر في العقول والنفوس ولم يتمكن من إدماج الشعب الجزائري في حضارة غير حضارته أو في أمة غير أمته، وطوال فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يكثرث المسلمون الجزائريون بتقاليد ولا بعادات هؤلاء الغرباء المغتصبين الكولون، فظلت الصلاة قائمة والمساجد عامرة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 -الأشرف مصطفى. (2007). الجزائر الأمة والمجتمع. (حنفي بن عيسى، المترجمون)، الجزائر: دار القصة للنشر.
- 2 -بالمر آلان. (1992). موسوعة التاريخ الحديث (الإصدار ج2، ت). (سوسن فيصل السامر ومحمد أمين، المترجمون) بغداد، العراق: دار المأمون للترجمة والنشر.
- 3 -بوحوش عمار. (12 جويلية، 1978). "سياسة الإدماج ومصادرة الأراضي في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر". المجلة التاريخية المغربية(01).
- 4 -بوضرساية بوعزة. (2007). الجرائم الفرنسية والإبادة الجماعية في الجزائر خلال القرن 19. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1954 م.
- 5 -التركي عروسية. (2005). فصول في تاريخ الحركة الوطنية في تونس المعاصرة. صفاقس، تونس: مكتبة علاء الدين.
- 6 -جيمس وليام. (2014). البراغميات. (وليد شحادة، المترجمون) دمشق، سوريا: دار الفرقد.

- 7 - دوطوكفيل ألكسي. (2008). **نصوص عن الجزائر في فلسفة الإحتلال والاستيطان** (الإصدار (د.ط.). (إبراهيم صحراوي، المترجمون) الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- 8 - زوزو عبد الحميد. (2009). **تاريخ الاستعمار في إفريقيا وآسيا**. الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- 9 - سارتر جون بول. (2007). **مواقف مناهضة للإستعمار**. (محمد معراجي، المترجمون). الجزائر: منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 10 - السروجي محمد محمود. (1966). **تاريخ أوروبا الدبلوماسية من السبعينات للقرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى**. الإسكندرية، مصر: مركز للكتاب.
- 11 - سماتي محفوظ. (2007). **الأمة الجزائرية (نشأتها وتطورها)**. (محمد صغير بناني، عبد العزيز بوشعيب، المترجمون) الجزائر: منشورات دحلل.
- 12 - بن الشيخ حكيم. (2013). **الأمير خالد ودوره في الحركة الوطنية 1912 - 1936**. الجزائر، الجزائر: دار هومة.
- 13 - العسلي بسام. (1980). **المقاومة الجزائرية والإستعمار الفرنسي، 1830 - 1833م** (المجلد ط:01). بيروت، لبنان: دار النفائس.
- 14 - العقاد صلاح. (1962). **المغرب العربي (الجزائر ، تونس، المغرب)**. القاهرة، مصر: المكتبة الأنجلو - المصرية.
- 15 - عميراوي أحميده وآخرون. (2007). **آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830 - 1954م**، الجزائر: سلسلة المشاريع الوطنية للدراسات والبحث، منشورات المركز الوطني في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م.
- 16 - عميراوي أحميده. (2004). **دراسات في تاريخ الجزائر الحديث**. عين مليلة، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- 17 - غليسي جوان. (1961). **الجزائر الثائرة** (الإصدار 01). (خير حماد، المترجمون) بيروت، لبنان: منشورات الطليعة.
- 18 - فرحات عباس. (1984). **حرب الجزائر وثورتها، (ليل الإستعمار)**. ج 01، (رحال أبو بكر، المترجمون). الجزائر: مطبعة الفضالية.

- 19 - لاجمير بريفيج. (أكتوبر 1989). العلوم الباثولوجية. ندوة حول علم الأمراض، 42، 36 - 42. نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية.
- 20 - معاهدة الاستسلام. و. ذ. (s.d.). المؤرخة في 05 جويلية 1830م للداي حسين. Dans ح. ا. تقاليدهم.
- 21 - مياسبي ابراهيم. (2013). مقاربات في تاريخ الجزائر 1830 - 1962م (الإصدار د.ط.). الجزائر، الجزائر: غرناطة للنشر والتوزيع.
- 22 - نيهان يحي محمد. (بلا تاريخ). معجم مصطلحات التاريخ. تأليف معجم مصطلحات التاريخ. الأردن، الأردن: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع.
- 23-Boyer, P. (1963). *La vie Quotidienne à Alger a la veille de l'intervention française*. Paris, France: éditions hachette.
- 24-Correspondance du président du Conseil, d. (1831, mai 22). Exposé Lemoine.
- 25-Caom, carton, 10H-61. Mr. ASSAOUVIC adressée à l'I.S.M d'Oran, France.
- 26-Caom. (1954, octobre 31). *Résultats statistiques du Dénombrement de la Population*. 01.
- 27-Caom. (s.d.). *Africains, Documents, Problèmes*. Paris, Fance.
- 28-Mannoni, P. (1993). *Les Français D'Algérie, Vie, Mœurs, Mentalité*. Paris, France: éditions L'harmattan.
- 29-Montifroy, G. (1990). *Puissances et Conflits. Fleuve Québec*, canada.
- 30-Mourre, M. (1978). *Dictionnaire encyclopédique D'histoire*. Paris, France: Bordas.
- 31-sahli, (1986). *Décoloniser l'histoire*. Alger, Algerie: Editions ENAP.

